نظرات في الأدب الإسلامي

إذا كان التصور الصحيح لإسلامية الأدب هو "تحريره من التبعية والنفوذ الأجنبي الوافد، والتماسه منهج القرآن الكريم في تصور الأداء والمضمون للأدب، من خلال عطاء النفس المؤمنة، والوجدان الأصيل، المؤمن بالله تبارك وتعالى، الملتمس لرضوانه، الراضي بقضائه، والذي يسلم نفسه لله تبارك وتعالى، إسلاماً كاملاً في سبيل الوصول إلى السكينة والأمن ورضاء النفس، دون أن يؤثر ذلك في إرادة الإنسان وحريته في التصرف والتزامه الأخلاقي "[1].. إذا كان التصور الصحيح لإسلامية الأدب هو بهذه المثابة، فإن الداعين إلى الأدب الإسلامي يكونون قد كسبوا المعركة من الجولة الأولى، في مواجهة المعارضين الرافضين لهذا اللون من الأدب: سواءً أكانت معارضتهم منصبة على المصطلح فقط "الأدب الإسلامي" دون المحتوى، أو على كليهما معاً، لأن الفن في نظر الإسلام - والأدب لغة من لغاته - هو ما يهتف بالإنسان عن طريق الصورة الجميلة، أو الكلمة الراقية، حاثاً له على أن يتذكر دائماً أنه خليفة الله في أرضه، وأنه يجب أن يصعد دائماً في مدارج الكمال ليحقق في نفسه أكبر قدر ممكن من الرفعة والاستعلاء على صغائر الخصال الحيوانية.

ولذا كان من الحق والواجب، أن ننسب الفضل لأصحابه في تعريفهم "الأدب الإسلامي" فقد عرفه الأستاذ محمد قطب في كتابه (منهج الفن الإسلامي) بقوله: "هو الفن الذي يرسم صورة الوجود من زاوية التصور الإسلامي لهذا الوجود".

"هو التعبير الجميل عن الكون والحياة والإنسان من خلال تصور الإسلام للكون والحياة والإنسان".

"هو الفن الذي يهيئ اللقاء الكامل بين "الجمال" و"الحق" فالجمال حقيقة في هذا الكون، والحق هو ذروة الجمال، ومن هنا يلتقيان في القمة التي تلتقي عندها كل حقائق الوجود"[2].

بقلم: صديق بكر عيطة*
مصر

وهو تقريباً ما عناه الأستاذ الدكتور جابر قميحة عندما عرفه قائلاً: "هو ذلك الأدب الذي ينبع من التصور الإسلامي للكون والحياة في قوالب فنية آسرة"[3].

وهذا التعريف هو ما تعضده صراحة أو ضمناً - كل التعريفات والدراسات التي أطلقها أو قام بها أدباء وكتاب هذا الفن الإسلامي الراقي. وقد تبنّت رابطة الأدب الإسلامي التعريف التالي:« الأدب الإسلامي هو التعبير الفني الهادف عن الإنسان والحياة والكون وفق التصور الإسلامي ».

ولقد احتل "الأدب الإسلامي" هذه المكانة العالية في نفوس الأدباء والنقاد، الذين دعوا

إليه ووطدوا أركانه؛ لما للأدب – عامة – من بالغ الأثر في حركة الحياة، وتحديد اتجاه هذه الحركة، واختيار منهج الأفراد والجماعات. فالأدب هو "المحرك الأول للمجتمعات، والدافع للبحث بالطرق المؤدية إلى خدمة المجتمع وتحريك الناس من الجمود الذي قد يؤدي بهم إلى الموت، والمجتمع الذي يخلو من المفكرين والأدباء، لا شك أنه مجتمع يصل به هذا الخلو إلى الجمود، والمجتمع الذي يصل إلى الجمود، مجتمع ميت، والموت ضد طبيعة الحياة المتحركة المتغيرة، ولهذا نجد أن بعض المجتمعات يصل في حركته إلى الأوج، والبعض الآخر ينحدر إلى الحضيض، وكل ذلك راجع إلى حركة المفكرين العاملين، والأدباء منهم خاصة الذين يبحثون عن المزيد من المعرفة والإدراك ولا يرضون لمجتمعاتهم أن يدركها الجمود الذي قد يؤدي إلى الموت"(٤).

ولذا كان من اللازم اللازب على الأديب أن يهتم بمخزونه الثقافي والأخلاقي، بقدر اهتمامه بنجاحه في أداء رسالته سواءً من حيث اتساع رقعة ذلك المخزون وعمقه، أو من حيث نظافته وطهارته، وهو ما يشكل مسؤولية الأديب أمام فنه. هذه المسؤولية التي "تتمثل في أن يوفر له – كما يقول الدكتور عبد الحكيم بلبع – كل مقومات النجاح من ثقافة خصبة أصيلة، تمتد إلى مختلف أنواع المعرفة الإنسانية، فكل أديب بل وكل مفكر محتاج إلى أن يعرف عن زمانه وعصره ما استطاع، فثقافة العصر هي التي تمنح الأديب القدرة على تفهم احتياجاته ومشكلاته، ولكن هذا لا يعني أن تنقطع صلة الأديب بتراثه وثقافة ماضيه، بل يجب أن تتوطد صلته بهذا التراث وأن يعمق إيمانه به وثقته فيه بوصفه مصدراً مهماً من مصادر المعرفة، فكل ثقافة حاضرة ليست في حقيقتها إلا امتداداً واستمراراً على صورة ما للثقافة الماضية، وتلك الحركة الموصولة بين كل ما هو قديم وجديد هي أمر طبيعي في كل مجال من مجالات النشاط الإنساني"(٥).

فالأديب والمفكر، كلاهما يجتر بصورة أو بأخرى ما سبق له من خبرات أو مهارات، ومما لا شك فيه "أن الخبرات النظرية لأي فرد من الأفراد هي مجموع معلوماته العَقدية والفكرية والسياسية التي استقر عليها والاقتناعات التي كونها في نفسه وسلوكه إزاءها، وهذه الخبرات النظرية والعملية متشابكة وغير متوازنة، يزيد بعضها وينقص حسب ميول الفرد واتجاهاته ونوعية تربيته الفردية والاجتماعية. فقد تكون الخبرات الفكرية لفرد ما أضعاف خبراته الاجتماعية، وقد تكون خبرات آخر العقدية ضئيلة جداً بينما خبراته السياسية واسعة.. وهكذا. أما الخبرات الفنية فلا بد من وجود حد أدنى، وإلا قلنا للأديب عليك أن تعود إلى مقاعد الدرس.

ولعل أول مكونات الخبرة النظرية – الإطار العام – هو العقيدة، والعقيدة هي كل ما يعتقده الفرد سواء أكان سماوياً أم بشرياً من صنع العقل البشري، وذلك أن الإنسان مرتبط دائماً بعقيدة معينة، وحاجته إليها فطرية تلازمه في كل زمان ومكان، لأن فيه ميلاً غريزياً إلى تبني عقيدة ما، توحد أو لا توحد، بل إن الإلحاد في ذاته عقيدة، لأنه يضع الطبيعة أمام الإنسان مكان الألوهية لذلك لا يمكن أن يتجرد الإنسان من العقيدة"(٦).

***

هذا في ما يتعلق بقيمة الأدب في تربية الأمم، وتوجيه حركة حياتها، وما ينشأ عن ذلك من ضرورة تنقية الأديب فنه مما قد يشوبه من فساد العقيدة، وانحراف السلوك والآداب النفسية العامة.

فإذا ما استعرضنا حياتنا الثقافية العامة، وجدناها قد عانت الكثير من الضربات الموجعة، التي كان لها الأثر البالغ في زحزحة الأدب العربي الأصيل، وبخاصة الشعر عن مكانته، أو على الأقل فقدانه كثيراً من المساحة الثقافية التي كان يحتلها لقرون طويلة تمتد في أغوار الزمن إلى ما قبل الإسلام بحوالي مئتي سنة، حتى مشارف عصر النهضة وذلك رغم هذا السيل الجارف، الذي تصبه على آذاننا صباً كل منافذنا الثقافية: مسموعة كانت أو مرئية أو مقروءة، مما يسمى شعراً.. مع ذلك لا تكاد تظفر إلا بالقليل النادر جداً من الشعر، الذي يثري الوجدان، ويلهب المشاعر،ويعكس من الإنسان صورته الحية، النابضة بالحياة، والتي تتجاذب مع الكون آخذة ومعطية في حركة دائبة دائمة – حتى ولو مات صاحب النعي – في صدق لتضيف إليه ما ينمي المشاعر وتظل نبعاً فياضاً يضاف إلى ينابيع الفكر والثقافة والأدب الخالد.

والسـرّ في ندرة هذا النوع من الأدب، تأثر الأدباء والنقاد بالثقافة الغربية، التي وفدت إلى الشرق مع قدوم الحملة الفرنسية، ثم مع العلماء والمدرسين الذين استقدموا من الغرب للإسهام في قيام "حركة التنوير" حسبما أطلق عليها فيما بعد. أو قل إساءة الإفادة منها لدى الكثيرين؛ أو بخاصة في مرحلة ما بعد الثلث الأول من القرن العشرين - إذ لم يكن هناك بدٌّ من التأثر والتأثير بين الآداب العالمية - .

ومما وفد إلى الشرق مع الاتصال الحضاري بالغرب، المذاهب الأدبية الغربية، التي خضع الشعر العربي لها "خضوع استسلام ومتابعة، ونحن نعلم أن هذه المذاهب لم تنشأ مصادفة بل هي نتيجة طبيعية لأمرين لا بد من تحققهما:

الأول: وجود قاعدة فلسفية تحدد أصول النظرة التجريدية.

الثاني: وجود عوامل تطور في المجتمع من حيث نظامه السياسي والاجتماعي والاقتصادي يتيح لتلك النظرة التجريدية فرصة السريان والتأثير(٧)".

- **فالمذهب الكلاسيكي** يقوم على النظريات التجريدية للفلسفة العقلية من جهة، والفكر الأرستقراطي في الحضارة الأوربية التي تتبع النظام الإقطاعي وتعتمد على الطبقة العالية في الهرم الاجتماعي وتجعل المسافة بين الطبقات في هذا الهرم ثابتة بحيث لا يرتفع وضيع ولا يتضع رفيع.

- **والمذهب الرومانتيكي:** قام على أساس قوي من الثورة على التقاليد الموروثة في الأدب عامة والشعر بخاصة، كما قام على تمجيد الحرية الشخصية، التي قد تجلب في بعض آثارها خروجاً على التقاليد العربية والإسلامية، وقد وضع أساسه جان جاك روسو في كتاباته التي نجد فيها حياة الفطرة عندما كان الإنسان بدائياً. وهي توغل في الخيال، وتعلي من شأن العاطفة على حساب العقل.

- وقد كان من **نتيجة الرومانسية** الموغلة والسير في ركابها إلى آخر الشوط أن انغمس الشعراء في الرمزية حتى آذانهم. هذا الاتجاه الذي دعا إليه عدد من الشعراء الفرنسيين "ولهذا يعتبر المذهب الرمزي الشعرَ رياضة على المعرفة الغيبية قبل أن يكون تجربةً مادتها اللغة، ويؤمن إيماناً مطلقاً بالتداعي الحر في غيبة العقل والوعي" (٨).

- وبسبب الإيغال في هذا **الاتجاه الرمزي الغيبي**، غرق الشعراء في بحار من الغموض والبعد عن الواقع فيما أسموه بالسريالية، أو ما فوق الواقع .. حتى بات الشعر - الذي هو إعراب عما يكنه الشاعر في ضميره من أحاسيس ومشاعر، في صورة فنية آسرة،تأخذ باللب، وتستلب العقل، لشرف معناها وروعة مبناها - ضرباً من الأحاجي والألغاز، لا يفهمه إلا صاحبه، وقد لا يستطيع الإعراب عنه إن هو سئل عنه بدعوى أنه إنما يخاطب الأجيال المستقبلة (٩) وحتى "إن ظاهرة الغموض (أصبحت) تقصي المتلقي من العملية الإبداعية إقصاءً يفوت عليه فرصة تغذية الذوق وإرهاف الإحساس، ويحرمه في الآن عينه من الحكم النقدي الذي من شأنه أن يرفد فطرته بضرب من التميز يسعفه في فرز سمين الشعر من غثه. ولعلنا نستطيع أن نذهب في هذا القول بعيداً فنزعم أن لشيوع ظاهرة الغموض ضلعاً أي ضلع في إفساد الذوق الشعري سواءً عند جمهور القراء أو لدى الشعراء الشباب الذين كثيراً ما يفزعون إلى تقليد المبرزين من شعراء الحداثة؛ خشية أن ينعتوا بالقدم في أسلوبهم ومنحاهم الفكري، أو حرصاً منهم على الظفر بسيماء الغموض في الشعر، بوصفه مرادفاً لنضج الرؤية واستواء الفن في العمل الأدبي" (١٠).

د. جابر قميحة

ومن هنا نرى النظريات الغربية، أياً كان اسمها، وقد شطت بعيداً عن **التصور الإسلامي للأدب:**

فهي، إما تقوم على فلسفة مادية بحتة لا علاقة بينها وبين متطلبات الروح الإنسانية، وإما تعيش بين أجواء الخيال المجنح الذي يبعد عن الواقع الإنساني ويبعد بالأدب عن غايته الأخلاقية في توجيه بني الإنسان. وإما تغوص في بحار من الغموض الرمزي ثم السريالي؛ مما أخرج الأدب عن مهمته الجليلة، التي تجمع في رباط أخوي وتلاحم عضوي بين العقل والعاطفة، وبين المادة والروح.

أما المفهوم الإسلامي للأدب فإنه:

١- يغطي الحياة الإنسانية بجانبيها: المادي والروحي معاً، ويصور الإنسان في حال ارتفاعه وسقوطه، نصره وهزيمته، قوته وضعفه؛ ليخرج في النهاية بخلاصة كريمة لائقة بخليفة الله في أرضه، وما نيط به من مهام في هذه الحياة، ولا تصور من لحظة السقوط بطولة للإنسان، وإنما تصورها لحظات عابرة في تاريخه الطويل، يجب أن يرتفع فوقها إذا هو سقط فيها؛ لأنه يتلخص في عاملين أساسيين: نفخة من الروح، وقبضة من الطين، تم بينهما ذلك اللقاء الذي أراده الله تعالى في هذه الدنيا.

٢- هو أدب واقعي يجره جوادان لا يستغنى بأحدهما عن الآخر: العقل والعاطفة. فالعقل إنما يمثل جانب المادة، التي بها يعمر الكون، وتسوخ قدما الإنسان في تربة الأرض ليبني حضارة، تتقدم به في مضمار المدنية الحديثة، التي تسخر عناصر الوجود بأفضل صورة ممكنة. أما العاطفة، فهي التي ترسخ قوى الترابط بين بني الإنسان، وهي التي تمد أشواقه الطائرة بزاد من القوة، التي تصل ما بين الأرض والسماء، حتى لا تستبد به المادة، وتحوله إلى وحش كاسر، لا يرعى في الله لأخيه إلاً ولا ذمة.

٣- لا بد أن تتوافر فيه الفائدة العملية والمتعة النفسية معاً. الفائدة العملية التي تشبع لديه حاجاته الضرورية، وتقيم أودها وتحقق له وجوده وأمانيه. أما المتعة النفسية فهي التي تمده بزاد من القوة الروحية، وتجعله قادراً على التحدي؛ متمسكاً في الحياة في أنقى صورها، وأشرف معانيها.

إن المذاهب الأدبية الغربية، إنما تصدر عن رؤية غير إسلامية، ترتكز على مفاهيم وتيارات خطيرة، تتلخص في هذه النظريات الأربع:

- **نظرية التطور الداروينية**، وما يتصل بها من تصور مطلق، يتصل بالمجتمع كله، وأن الإنسان حيوان ناطق.
- **نظرية فرويد**، وما يتصل بها من تصور أن الجنس وحده هو المنطلق الذي تندفع منه الرغبات الإنسانية.
- **نظرية ماركس**، وما يتصل بها من أن حركة الحياة تحكمها لقمة العيش.
- **الفلسفة المادية** التي تقرر أنه لا يوجد إلا المحسوس وحده وأن الغيبيات والنبوة والأخلاق غير معترف بها.

أما الأدب الإسلامي، فإنه يقوم على التصور الإسلامي الذي يعتمد على القواعد الأساسية الآتية:

١- تأكيد الانتماء الإسلامي، والالتزام الإسلامي، ومسؤولية التعلم.

٢-إعادة الثقة إلى النفس الإنسانية في مغفرة الله تبارك تعالى ورحمته، وفتح صفحة جديدة مع العمل الصالح.

٣- الارتقاء بالإنسان، وتجاوز حالات ضعفه، وعدم التركيز على نقائصه، أو تحسينها.

٤- التصدي للحركات الأدبية، والمناهج الأدبية المنحرفة، وإبراز مخاطرها وسيئاتها ومفاسدها.

٥- توجيه المجتمع إلى الاستعلاء على الفاحشة والإباحية، والعودة إلى الأصالة والمناهج والقيم الإسلامية العليا(١١).

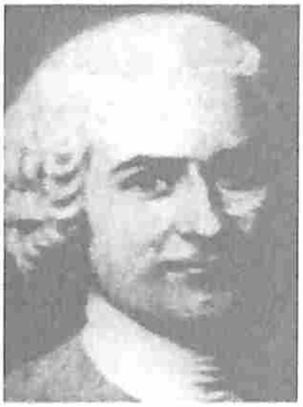

جان جاك روسو

هذه هي القواعد التي يقوم عليها التصور الإسلامي للأدب، وهي ذاتها هموم الأديب المسلم، أو هي ما ينبغي أن يشغله، وهو يحمل هموم مجتمعه، لينظر إليه من خلالها كمعايير أخلاقية إذا كان حقاً يقدر الكلمة، وقيمتها وموقعها في بناء المجتمع المسلم.

***

ولأهمية الإخلاص لهذا الاتجاه الأدبي، وخطورة موقعه في بناء المجتمع المسلم، يقول الأستاذ محمد قطب في كتابه "منهج الفن الإسلامي":

"والفن الإسلامي ينبغي أن يصدر عن فنان مسلم، أي "إنسان" تكيفت نفسه ذلك التكيف الخارجي، الذي يعطيها حساسية شعورية تجاه الكون والحياة، والواقع بمعناه الكبير، وزود بالقدرة على جمال التعبير، وهو في الوقت ذاته إنسان يتلقى الحياة كلها من خلال التصور الإسلامي، وينفعل بها ويعانيها من خلال هذا التصور، ثم يقص علينا هذه التجربة الخاصة التي عاناها، في صورة جميلة موحية.

" وهذا هو الذي لم يتيسر من قبل في الأدب العربي - لسبب من الأسباب - والذي توجد منه اليوم بواكير متفرقة تنبئ بأنه قد ولد بالفعل، وأنه في طريقه إلى التكامل والنضوج.

"ولكنه - بهذا المعنى - ليس وقفاً على المسلمين وحدهم من الفنانين.

" وصحيح - من ناحية أخرى - أن المسلم وحده هو الذي تتسع نفسه للتصور الإسلامي الكامل، لأن هذا التصور هو المقتضى الطبيعي المباشر لحقيقة إسلامه، ولأن الإنسان لا يصل إلى هذا التصور الكامل الشامل حتى يكون قد أسلم نفسه لله على طريقة الإسلام وبمفهوم الإسلام.

"ومع ذلك فإن التصور "الفني" الإسلامي للكون والحياة والإنسان، هو تصور كوني إنساني.. مفتوح للبشرية كلها؛ لأنه يخاطب الإنسان من حيث هو إنسان، ويلتقي معه كذلك من حيث هو إنسان. ومن ثم يستطيع أي "إنسان" أن يتجاوب مع هذا التصور، ويتلقى الحياة من خلاله - بمقدار ما تطيق نفسه هذا التلقي وذلك التجاوب، فيلتقي مع الفن الإسلامي بذلك المقدار" (١٢).

فالأديب المسلم والأديب غير المسلم يلتقيان حول رؤية واحدة تتطابق مع وجهة النظر الإسلامية، حينما يحتكم غير المسلم إلى فطرته النقية، التي تستحسن الحسن وتستقبح القبيح، في القول والفعل.

فمثلاً عندما ترى أحد المشركين وقد سمع قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ (النحل). ترى هذا الرجل يقول: إن رب محمد يأمر بالعدل والإحسان، وينهى عن الفحشاء والمنكر!! والله، لو لم يكن هذا ديناً لكان في ميزان الأخلاق حسناً!!

وعندما نرى الوليد بن المغيرة يقول عن القرآن مخاطباً قريشاً: والله لقد سمعت من محمد كلاماً ما هو من كلام الإنس، ولا من كلام الجن؛ إنه له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه يعلو ولا يعلى عليه، وإنه ليحطم ما تحته".

عندما نرى هذا الكلام وذاك يجريان على لسان أحد المشركين في لحظة عابرة من ليل أو نهار، ندرك أن "الإنسان" أديباً كان أو غير أديب، حينما يخلص إلى نفسه، وتتخلص هي من أدران الشرك وأوهان العبودية لغير الله تعالى، يمكن "أن يتجاوب مع هذا التصور، ويتلقى الحياة من خلاله بمقدار ما تطيق نفسه هذا التلقي وذلك التجاوب".

ليس معنى هذا أن نطلق على ما أنتجته قريحة الأديب غير المسلم من هذا النوع أدباً إسلامياً، أو أن نتخلى عن شرط أن يكون الأديب مسلماً وإنما يعني هذا أن الأدب الإسلامي، إنما هو أدب الخلق الرفيع والأهداف النبيلة، التي تلتقي في رحابها وتحت دوحتها قرائح "البشر" عندما تخلص من كل ما يشوب فيه إنسانية "الإنسان".

ويكفي في تبرير هذا الشرط في اعتباره أدباً إسلامياً، أن الأديب المسلم هو الإنسان الذي يتلقى الحياة كلها من خلال التصور الإسلامي، وينفعل بها ويعانيها من خلال هذا التصور، ثم يقص علينا هذه التجربة الحاصة التي عاناها، في صورة جميلة موحية" فشرط إسلام الأديب هنا، إنما كان لضمان عنصر الصدق الشعوري الذي هو شرط القبول في أي عمل أدبي أو فني. ■

الهوامش:

* موجه اللغة العربية - غرب المنصورة التعليمية - مصر.

(١) أنور الجندي - مجلة الأدب الإسلامي. المجلد الأول. العدد الثاني ص٣ .

(٢) محمد قطب: منهج الفن الإسلامي ص٨ .

(٣) مجلة الدارة - العدد الأول - السنة العشرون ص١١١ .

(٤) عبد الله زكريا الأنصاري - الثقافة عدد مارس ١٩٧٤ ص٢٠ .

(٥) مجلة الثقافة "ماهية الأدب ومسؤولية الأديب في العصر الحديث".

(٦) د. عبد الباسط بدر - مقدمة لنظرية الأدب الإسلامي. ص٢١، ٢٢ .

(٧) د. محمد مصطفى هدارة - مجلة الأدب الإسلامي. السنة الأولى، العدد الثاني.

(٨) نفس المصدر.

(٩) اقرأ في موقف الإسلام من المذاهب الأدبية الغربية كلاً من: د. عبد الرحمن رافت الباشا في "نحو مذهب إسلامي في الأدب والنقد"، وأنور الجندي في مجلة الأدب الإسلامي وفي مجلة الثقافة عدد ديسمبر ١٩٨٩، ومحمد قطب في "منهج الفن الإسلامي"، ود.أحمد محمد علي في "الأدب الإسلامي ضرورة، ود. عبدالباسط بدر في «مذاهب الأدب الغربية : رؤية إسلامية».

(١٠) قطب الريسوني - مجلة الوعي الإسلامي العدد ٢٤٧ رجب ١٤١٥هـ ديسمبر ١٩٩٤م.

(١١) انظر أنور الجندي في "مجلة الأدب الإسلامي" ومجلة "الثقافة".

(١٢) منهج الفن الإسلامي: ص١٨٢، ١٨٣ .